إلغاء البغاء وإلغاء البغايا

بقلم الأستاذ الأديب س . ق

فى مكاتب "وزارة الشؤون الاجتماعية" مشروع قانون لإلغاء البغاء ، تلبى بسنه الرغبات الكبيرة التى جاشت فى ضمير الأمة منذ أن أصبح البغاء مهنة فى حماية الدولة ، والأصوات الكثيرة التى ارتفعت تطالب بهذا الإلغاء فى فترات داخل البرلمان وخارجه ؛ وتنفذ به الانسجام الواجب بين ما يقرره الدستور من أن " دين الدولة الرسمى هو الإسلام " و بين مظاهر الحياة فى هذه الدولة ، وتجيب به صوت الإنسانية كلها فى حماية المرأة من " تجارة الرقيق الأبيض " بعد ما حرم الرق فى جميع القوانين ، و تصون به الفضائل البشرية التى تتأذى جميعا بهذا النظام ، ولتكفكف من حدة الجرائم التى ترتكب فى أحياء البغاء وتقترف حول هذه الأحياء وحول النظام كله ، وهى جرائم متعددة مختلفة الألوان ... وأخيرا لتقاوم انتشار الأمراض السرية التى يملأ هذا النظام قلوب رواد المواخير بالاطمئنان الكاذب من ناحيتها وهو اطمئنان لا محل له ، وله عواقبه فى الأجيال القادمة الملوثة .

و يطول بنا تعداد الأسباب التى تجزم بإلغاء هذا المظهر البشع من حياة شعب متمدين ولكن قبل أن نندفع فى تعدادها يجب أن نقف هنيهة لنقول " إن إلغاء البغاء شىء أكبر من إلغاء البغايا "شىء مختلف جدا ، وهذا ما ينبغى أن نلتفت إليه قبل أن نغرق فى الامال العذبة من وراء هذا الإلغاء .

فسن قانون بتحريم البغاء العلنى والسرى ، و إقفال هذه البيوت الدنسة ، وكفالة أولئك النسوة اليائسات فى ملجأ أو مشغل ، وكفهن عن المجتمع ، وتشديد العقوبة على من يضبطون فى المنازل السرية من مخالفة إلى جنحة بل جناية ...

كل أولئك إنما هو " إلغاء للبغايا " محدود الأثر ، ولكنه لا يجتث الداء من أساسه وستعود العوامل التى بعثت بهؤلاء البغايا إلى هذه الأوكار ، فتبعث بسواهن من جديد ولكن هؤلاء الجديدات لن يكون مقرهن تلك البيوت العلنية ، ولا تلك البيوت السرية ذات الطابع الخاص المعروف لرجال الشرطة ، بل سيكون فى المنازل الشريفة ، وفى جهات "فوق مستوى الشبهات" ، ولا تستطيع عين الشرطة ولا يد القانون أن تلاحقهن متفرقات فى كل مكان ، بعد أن كن مجتمعات أو شبه مجتمعات !

ويجب أن نلفت بالنا إلى أمرين هامين : أولهما أن البغاء لا يتم بوجود المرأة البغى بل لا بد لها من شريك هو " الرجل البغى " . وثانيهما أن هذه الأحياء والبيوت ليست منابع للبغاء ولكنها مصاب له ، فهو يقع فى بيئات وأوساط وأحوال كثيرة ثم يتحدر إلى هذه المصاب بعد ذلك ، والإلتفات إلى هذين الأمرين خليق أن يوسع نظرتنا إلى الموضوع كله ، فيشمل العلاج الشريكين فى البغاء ، كما يشمل منابعه الأولى بالتطهير ، ويقوم هذا العلاج بجانب القانون الذى تهم " وزارة الشؤون الاجتماعية " به ، وبهما معا نستطيع محو هذه الوصمة من جبين الإنسانية المصرية . فلنستعرض بعض هذه المنابع الوبيلة .

الطفولة المشردة منبع من منابع البغاء الأساسية ، فيجب أن نحمى هذه الطفولة مما تتعرض له فى الأزقة والطرقات والمباءات ، تحت تأثير عوامل الفقر وسوء التربية ، وفساد القدوة ، وقوة الإغراء ، من الهوى الى درك البغاء فى النهاية ، ونظرة واحدة يلقيها الباحث الى الصبيات والفتيات بائعات اليانصيب ، وجامعات أعقاب السجاير والمنسولات وأمثالهن والى الأماكن التى يرتدنها لمزاولة هذه " المهن ! " والصبية والغلمان والشبان الذين يختلطون بهن فى هذه الاماكن .. نظرة واحدة تشير الى المصير المحتوم لهؤلاء وهؤلاء .

فهذا المنبع يجب تطهيره بإيجاد الملاجئ والمشاغل والتشديد فى عقوبة أولياء أمور هؤلاء المشردين والمشردات ، ولنذكر دائما أن هذه البذور هى نبات المستقبل ، وأن فى هذه الطفولة كنوزا لا يصح إغفالها ، فاذا لم يكن لنا من وراء العناية التامة بها إلا تطهير منبع من منابع البغاء لكان كل جهد فى هذه الناحية له ما يبرره .

والمنبع الثانى هو الخدمة فى المنازل ومكاتب التخديم ، ويجب أن نذكر أن كثيرا من الخادمات يبدأ سقوطهن فى مكتب التخديم أو فى البيوت التى يخدمن فيها . مع الخدم أو مع الأسياد وأبناء الأسياد ! وحقيقة أن الكثيرات منهن يردن الى مكتب التخديم أو منزل الخدمة ساقطات ، ولكن كثيرات كذلك يردن طاهرات بريئات .

وعلاج هذه المشكلة يكون بفرض رقابة شديدة على مكاتب التخديم ، واستخراج شهادات بالكشف الطبى على كل فتاة تريد احتراف الخدمة فى المنازل فوق شهادة تحقيق الشخصية ، تثبت حالتها ، ولا يسمح بوجودها فى المكتب ولا فى المنزل إلا بعد استخراج هاتين الشهادتين ... ثم جعل هؤلاء الفتيات بعد ذلك فى رعاية مدير المكتب أو صاحب المنزل الذى تخدم فيه ، بحيث يعتبر كل اعتداء عليها من أحدهما جناية ولو كانت بالغا ولو لم يصحبه إكراه ، ثم يعاد توقيع الكشف الطبى عليهن فى نهاية كل عام .

وهذا العلاج لا يضمن المحافظة على الخادمات محافظة تامة ، شأنه شأن كل علاج يتولاه القانون وحده ، ولكنه مع الوسائل الأخرى يقلل الى حد كبير من حوادث السقوط . ويجب

أن ننتبه الى أن الخادمة التي تسقط سيتهى بها المطاف غالبا الى دور البغاء، أو تكون هى دارا متنقلة من هذه الدور .

وبهذه المناسبة أشير إشارة خاصة إلى الخادمات فى "البنسيونات" وبعض الفنادق فهن خادمات فى الظاهر ولكن وظيفتهن الأولى فى كثير من الأحيان هى البغاء أو التمهيد للبغاء .

والفقر أكبر مدرسة من مدارس البغاء ، وأوسع منبع من منابعه ، وعلاج مشكلة الفقر موضوع قائم بذاته تكتب فيه المقالات والكتب ، فلا ينتظر منى القراء أن أبحثها فى هذه الكلمة المحدودة ، وكل ما أشير به أن يكون من همنا ونحن نحاول إلغاء البغاء أن نجتهد فى إلغاء الفقر ، وكل خطوة نخطوها فى هذا الطريق بأية وسيلة من الوسائل مضمونة الأثر فى تطهير منبع أساسى من منابع الداء .

والفراغ والعمل الآلى وتناول الخمور والمخدرات والشذوذ الجنسى والأمراض العصبية وقسوة التقاليد وفسادها حوافز دافعة إلى البغاء ، وسنفرد لكل منها كلمة قصيرة خاطفة فيما يلى ، وكل منها صالح لبحث مستقل طويل :

فالفراغ الذى يملأ حياة شبابنا ، والنشاط الحيوى المدخر الذى لا ينفق فى عمل أو هواية ، يدفع الشاب إلى التماس تصريفه فى النشاط الغريزى ، ومن هنا يستخدم — كل على طريقته وفى مستواه — وسائل الإغراء الجنسى للبريئات من كل طبقة ، وحين تسقط الفتاة ثم تسقط ، ترشح نفسها للبغاء على شكل من الأشكال .

فيجب أن ينصرف همنا إلى ملء فراغ شبابنا بالعمل والألعاب الرياضية والهوايات المنوعة التى تعصمهم من التفكير فى الغريزة ، وتمدهم فى الوقت ذاته بموارد قوة أو ثقافة أو ثروة وترفع مستواهم النفسى والعقلى والجسمى. ومكان هذا فى المدرسة وفى النادى وليكن ذلك بين برامج دراستنا ومجتمعنا .

والعمل الآلى الذى لا يحمل على التفكير اتضح أخيرا أنه عامل من عوامل البغاء ، فقد لاحظ الباحثون انتشاره بين فتيات المصانع الآلية ، وهو كذلك فى الفتيان ، وهذه المشكلة لم تشتد عندنا بعد ، ولكننا أخذنا فى الطريق الصناعى الآلى فينبغى أن نضع الأسس لعلاج الأزمة قبل استفحالها فنعنى بهؤلاء العمال والعاملات ، ونكفل لهم النهوض عن هذه الآلية بالنشاط الرياضى والذهنى فى مجتمعات خارجية تتلقاهم بعد مواعيد العمل فتروح عن نفوسهم ، وتحميها من الاتجاه إلى الانحلال والجمود .

وهنا يتجه الذهن إلى "جيش الخلاص" و إلى الجمعيات النسوية ، ولكنا نرجئ الحديث عنهما إلى موضعه فى آخر المقال .

وتناول الخمور والمخدرات حافز من حوافز البغاء كذلك بما يضعف من الأجسام والعقول ، وبما يهيج من الغرائز الكامنة ، فكل محاربة لها محاربة للبغاء فى صورة من الصور ، ولا سيما فى أوساط الفتيان ، وفى الطبقات الفقيرة المنهوكة بالعمل وسوء الغذاء .

والشذوذ الجنسي والأمراض العصبية ، قد تكون وحدها دافعا إلى الهوة، فقد لايكون الرجل أو المرأة فقيرا ولا سيئ التربية ولا خاضعا لإغراء ، فيكون الشذوذ الجنسي أو المرض العصبي وحده حافزا لهما على تجنب السبيل السوى ، وقد يكون كلاهما متزوجا فى أحوال كثيرة ، بل إن بعض العلماء يقرر أن جميع العوامل لا تكفى وحدها لخلق المرأة البغى ما لم تعتمد على أساس الشذوذ الجنسي أو الجسمى بشكل عام ، بدليل أن كثيرات من النساء السويات يتعرضن لما يتعرض له الفسوة الشواذ من عوامل ولكنهن لا يسقطن ، وإذا سقطن فإنهن لا يملن إلى البغاء (والمسافة كبيرة بين السقوط والبغاء) .

وعلاج هذه الحالة يكون بإنشاء معاهد الشواذ ومستشفياتهم من الجنسين ، وملاحظة هذا الشذوذ وتتبعه بالدواء قبل أن يستفحل فيقود إلى البغاء .

كما يجب التفكير العاجل فى منع هؤلاء الشواذ الميئوس من شفائهم أن يتناسلوا ويتكاثروا فإن نسلهم سيكون مثلهم منبعا غزيرا من منابع الداء .

أما قسوة التقاليد وفسادها فتشمل جهات متنوعة للحديث نمر بها سراعا ، فاحتجاب المرأه الفاضلة عن المجتمع المصرى أحقابا متطاولة ، ثم اندفاع المرأة عامة إلى الاختلاط بغاة ، سبب من أسباب الفساد الخلقى فى الحالتين . ذلك أن احتجاب المرأة عن المجتمع يلهب الغرائز ويحرمها العلاج اليومى البطىء بالنظر والسماع والاختلاط البرىء، ويدعو إلى ارتوائها بطرق ملتوية هابطة فى معزل من الرقباء . وذلك أن اندفاع المرأة إلى اختلاط لم يشترك الزمن فى تهيئة وسائله وإعداد النفوس والأخلاق له جر فى أثره كارثة أخرى من كوارث الأخلاق .

ومن التقاليد الفاسدة كذلك المغالاة فى المهور وتكاليف الزواج وبذخ الحياة الزوجية التى تجعل الزواج مسألة صعبة متعذرة على كثير من الشبان وتعطل بذلك كثيرات من الشواب مع تعرضهم جميعا لقسوة الإغراء ودفعة الحوافز التى تحيط بهما من كل ناحية بسبب المدنية الحديثة ، مما يزل أقدامهم فى منحدر زلق مرهوب .

ومن التقاليد القاسية قسوة المجتمع فى بعض جهات المملكة المصرية على المرأة التى تسقط ولو مرة واحدة، والملحوظ أن غالبية البغايا يجئن من الوجه القبلى . وقد يبدو ذلك عجيبا ولكنه منطقى ، فالمعروف أن أهالى الصعيد لا يتسامحون غالبا فى جرائم العرض، فالفتاة العاثرة التى تسقط مرة لاتجد لها ملجأ يعصمها من القتل أو من الازدراء الذى لا تطاق معه الحياة إلا حين تحتمى بالقانون وتسلم نفسها للماخور ، بينما يتسع صدر أهالى الريف لمثل هذه الفتاة قليلا ويتسع صدر المدينة لها كثيرا ، فتجد الفرصة لتلافى غلطتها والعودة إلى الحياة الشريفة ، أو تختار لها مصيرا غير مصير البغاء الشنيع .

وهنا يتسع الحديث عن "جيش الخلاص" ومجال عمله غير محدود فى كل حالة من الحالات التى مر ذكرها ، فهو يستطيع المعاونة على الفقر وتوفير معاهد التهذيب والنوادى و وسائل التسلية البريئة وتلقف الساقطين و إرشادهم إلى حياة شريفة وتعهدهم بالمعونة وتطهيرهم وضمانتهم أمام المجتمع الذى لا يثق بهم بعد سقوطهم ، وترقية مستواهم النفسى والجسمى .

و "الجمعيات النسوية" تستطيع احتضان الفتيات المشردات وتهذيبهن كما تتولى انقاذ الساقطات التائبات أو المستعدات للعودة إلى طريق التوبة و إعادتهن الى المجتمع فاضلات شريفات ، وتستطيع أن تكون مجتمعا ونواديا لعاملات المصنع وأمثالهن ، ومعينا على تزويج الفقيرات. وكل عمل من هذه الأعمال أجدى على الوطن وعلى النهضة النسوية من ألف خطبة فى مؤتمر وألف حفلة للسمر ، وألف نداء بمنح المرأة حقوق الانتخاب .

ولست فى حاجة أن أقول فى النهاية : إن التربية الصالحة . والتقاليد القويمة والتعاليم الدينية . والرقابة على الصحف والسينما والمسرح والأغانى بحيث لا تكون معاهد للإغراء المبتذل و كافة وسائل الرقابة الأدبية من الحواجز والزواجر فوق كل قانون وأعظم من كل تشريع .

* * *

هذه نظرة سريعة إلى أسباب البغاء الأصيلة ووسائل علاجها ، وكل تشريع بإلغاء البغاء لن يؤتى ثمرته كاملة حتى يتناول المشكلة من أساسها .

ولعل هذا العرض الخاطف يعطينا فكرة صحيحة عن عظم التبعة التى تضطلع بها وزارة "الشؤون الاجتماعية" و يؤكد لنا أن سلطان الدولة كلها يجب أن يؤازرها ، بل يجب أن تؤازرها قبل ذلك جهود الهيئات والجماعات ، فالبيت والمدرسة والنادى والمجتمع والقانون ، كل أولئك وسائل متفاوتة لعلاج مشكلة البغاء ، وخطوات الجميع يجب أن تسير متناسقة متساوقة حتى تثمر الأثر العميق المضمون .

س . ق